البلاغة والاجتماع

هل البلاغة صورة الاجتماع؟ وهل يصح أن تتخذ حركة الكتابة من شعر ونثر دلالة على حياة الأمم الاجتماعية، وعلى مجموع صورة الاجتماع من أفكار وعقائد، وتصورات وخيال، وذكاء ودقة فى الفهم، وخمول فى القريحة، أو على ما فى الأمم من ميل إلى الجلد وإلى اللهو، وما فى النفوس من قوة وضعف وإرادة، وعلى اختلاف الأذواق وفهم الجمال، ثم على العادات وغير ذلك، مما يدل على شىء من التاريخ والأخلاق القومية؟

قال بعض الفلاسفة الاجتماعيين: "يلاحظ أنه حصل منذ هو مروس تقدم تدريجى فى الكتابة والشعر. حتى لقد يمكن أن نعتبر البلاغة صورة للاجتماع، فقد مرت بأطوار كثيرة، وأنواع من الموضوعات الساذجة الخاصة بالأفراد، إلى الأنواع العامة، وتطرقت إلى الموضوعات الشريفة التى يمكن أن تمثل الجمهور" أى بعد أن كان الكاتب أو الشاعر لا يتكلم ولا يكتب إلا عن نفسه وعيشته الخاصة، أخذت الكتابة تتسرب إلى الموضوعات الاجتماعية شيئًا فشيئًا، حتى انتقلت من وصف الأشخاص إلى وصف الجمهور والمجتمع. وقالوا طريقة الكتابة والتعبير تدل على نفس الكاتب وحقيقته. يريدون أن الأفكار بنفسها مع أسلوبها تدل على صاحبها. وقالوا بعد ذلك إن البلاغة صورة الاجتماع. يريدون أن ما يوجد من الأفكار فى الكتابات من نظم ونثر يمثل الحالة الاجتماعية، ولا سيما الفكرية منها. وقالوا إن القوانين والنظامات أثر من آثار الرجال. أما البلاغة فتمثل شخصيات الأمم. يريدون أن الكتاب الاجتماعيين يمثلون دائمًا فى كتاباتهم الحالة الاجتماعية للأمم، ويظهرون فيها

مجموع الأفكار ومجموع العادات السائدة فى ذلك الوقت، لأن هذه الكتابات إنما تمثل أشخاصًا، وتصور أفرادًا من المجتمع، ومحور الكلام أو مغزى البلاغة يكون دائرًا حول جماعة من بيئة خاصة، فهى تمثل هذه البيئة. وأخلاق الكتاب والشعراء التى تبدو فى كتاباتهم، إنما هى حالة من أحوال البيئة التى يعيش فيها هؤلاء الكتاب، فهم جزء من مجموع الجمهور الذى يعبرون عن حالته، ويسمعنا صرير أقلامهم صوته.

وعلى ذلك فالحركة الكتابية هى نفس الاجتماع بما فيه، أى صورة أصلية للأمم، وحقيقة من الحقائق الثابتة، تمثل كل ضروب الحياة، وحركات عقول الأفراد من علماء وأدباء وفنيين وفلاسفة وغيرهم.

ويمكنا نحن أن نضرب لذلك مثلا بالشعر العربى مدة الدولة الأموية من الهجاء والمدح، وانقسام الشعراء إلى أحزاب سياسية كل يمثل رأيًا من الآراء السائدة فى ذلك الوقت، وانقسم الشعراء إلى علويين ينصرون آل على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وإلى أمويين يؤيدون سياسة بنى أمية وغير ذلك.

وهل يكون أدل على الحرية فى ذلك الوقت من قول النعمان بن بشير وقد دخل على معاوية أمير المؤمنين يؤنبه على هجو الأخطل الأنصار:

معاوى إلا تعطنا الحق تغترف ... لحى الأزد مشدودًا عليها العمائم
ويشتمنا عبد الأراقم خلة ... وماذا الذى تجرى عليك الأراقم
فما لى ثأر غيرهم قطع لسانه ... فدونك من يرضيه منك الدارهم
وإنى لأغضى عن أمور كثيرة ... سترقى بها يومًا إليك السلالم
فما أنت والأمر الذى لست أهله ... ولكن ولى الحق والأمر هاشم

فهـذا الشعـر يصح أن يكون صورة صـحيحـة من صور الحـياة إذ ذاك ويصح أن يدل على حرية الشـعب مدة خلافـة معاوية. ومـثل ذلك يقال فى العادات والأخلاق، كقول امرأة رزقت بنتًا فغضب عليها زوجها وهجرها إلى بيت قريب منها، فكانت تناغى ابنتها بالأبيات الآتية:

مـا لأبـى حـمـزة لا يـأتينا يظل فى الـبـيت الذى يـلينا
غـضـبـان أن لا نلد البـنينا تالـله مـا ذلك فى أيديـنا
وإنما نـأخـذ مـا أعطيـنا ونحن كـالزرع لـزارعـينا
ننبت مـا قـد زرعـوه فـينا

فهـذا أيضًا يدل على ضرب من المعـاملات، وعلى أحوال الاجتـماع، وعلى ما للمرأة من رقـة الأخلاق ولين الجانب. قالوا ولما سـمع زوجها هذا النشيد هم بتقـبيلها هى وابنتها، فكان ذلك سببًا لرجـوعه إلى زوجته. ومثل ذلك يقال فى الأشعار الدالة على الكرم والشجاعة والعشق وغيرها.

قال أصـحاب هذا المذهب إن "أمـثال"[1] لافونتـين الشاعـر الفرنسى الشيهـر "وأخلاف" لابروبير[2] الكاتب النقدى، تدل دلالة تامـة على حالة الاجتـماع فى القرن السـابع عشر فى فـرنسا، وعلى زمن لويس الرابع عـشر وحاشيته، لأن لوفونيتن مثل الأشخاص فى صور حيوان، ولا بروبير ذكر فى "أخلاقه" صور الذين كانوا يعـيشون فى ذلك الزمن، بما لهم من الأخلاق، والعادات فكأنما رسم الاجتـماع والزمن اللذين كان يعيش فيهـما، كما يرسم المصور لوحته بالألوان ويبين فيها مميزات الشخص.

(١) اخترنا أن نطلق "الأمثال" على ما يسمونه "Fables" لأنه أظهر فيه.

(2) (Caracteres) La Bruyiere

وعندنا نحن من الأمثلة على ذلك، ما يقرب من هذا فى البلاغة المصرية "حديث عيسى بن هشام" لمحمد بك المويلحى، فإن فيه رسمًا للحياة والأسر فى مصر على اختلافهما فى زمن من الأزمان. وهو من أفضل الكتب التى يصح الاعتماد عليها فى معرفة الحياة المصرية الحاضرة وفى معرفة الأفكار والأخلاق والعادات والمنتشرة عندنا والفضائل والرذائل السائدة فينا(١).

وكان من رأى جماعة من الأدباء أن القصص والروايات تصح أن تكون منبعًا من منابع التاريخ، ومرجعًا من مراجعه، لأنك تجد فيها كل أشكال الناس: ففيها الطفل والشاب، والجندى والحاكم والمالى والشئيف والسياسى بميزاتهم وأخلاقهم النفسية والاجتماعية، وبأشكالهم الحقيقية فقد أخذت الكتابة شكلا علميًا تاريخيًا، وصارت البلاغة كتراجم لأشخاص ونفوس اجتماعية، لأفراد خاصة معينة، أو بعبارة أخرى، أصبحت الكتابة تمثل أخلاق المجتمع، وتكشف حقيقته، كما أن العلوم يتوصل بها إلى تقرير الحقائق، كدرس طبيعة حيوان، أو صفة عامة فى فصيلة من فصائل النبات.

هل أصحاب هذا الرأى محقون؟ وهل يؤخذ هذا الكلام على علاته؟ وهل الأشخاص الذين نراهم فى جوف القصص، وفى بطون الحكايات لهم صورة أصلية فى الخارج؟ وهل أوصافهم وأعمالهم ووظائفهم حقيقة من الحقائق الثابتة؟ إذا بحثنا فى ذلك بحثًا دقيقًا وجدنا أن هناك فرقًا ظاهرًا، وأحيانًا مخالفة واضحة بين بعض الكتابات البلاغية، وبين البيئة التى نبتت

(١) مثل هذه الكتابة هى التى نوهنا عنها فى افتتاح محاضراتنا. وقلنا أننا نريد أن تكون لنا آداب مصرية، تمثل حالتنا الاجتماعية، لتكون لنا شخصية ظاهرة فى بلاغاتنا وكتاباتنا، وليعرف القراء منها فى أى مكان وفى أى زمان كتبت.

فيها وخرجت منها. وسبب ذلك أهواء الكاتب الشخصية وأغراضه النفسية، أو تأييد فكرة يعمل على إثباتها ويبالغ فى تقديسها.

ذلك لا يظهر فى الآداب العربية ظهورًا واضحًا، لأن بلاغة العرب محصورة، أو تكاد تكون محصورة فى الشعر، والشعر لا يمثل حالة الاجتماع تمثيل النثر له، لضيق المجال فيه، لأنه لا يسع جميع الأفكار ولا يحتمل إظهار الحقائق كما ينبغى، لما فيه من القوانين التى يجب على الشاعر اتباعها. وكثيرًا ما تضطره إلى ذكر ما لا يلزم أو حذف ما يلزم، فالشاعر لا يجد فى شعره الحرية المطلقة التى يجدها الناثر فى نثره. ولأن الشعر رغم كل شىء مبناه الخيال والمبالغات. والصناعة الشعرية كثيرًا ما تضطر الشاعر اضطرارًا لاتباع أهوائه، خصوصًا الشعر العربى لأنه أكثر الشعر رونقًا وبهاء. وأشده ارتباطًا بالنغمات الموسيقية، والموازين والألفاظ الضخمة، والاستعارة والتشبيه والمجاز(١).

فجمال الشعر العربى فى الصناعة. وهو كذلك عند جميع الأمم، خصوصًا الشعر الوجدانى، فإنه يكاد يكون مبنيًا على ذلك فحسب. فكيف يستدل بالشعر على الحقيقة، . وقولهم "إن الشعر ديوان العرب، به أخلاقهم وعاداتهم وأنسابهم وحروبهم" ليس معناه أن الشعر يصح أن يكون دليلا من أدلة التاريخ العام. فإذا روى أحد الشعراء قصة فلا يصح أن تؤخذ على أنها

(١) قال ابن رشيق فى "كتاب العمدة": وإنما سمى الشاعر شاعرًا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره. فإن لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ. أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازًا لا حقيقة، ولم يكن له الأفضل الوزن (ص ٧٤ جـ ١).

حقيقة من الحقائق الثابتة، كما فى كتب التاريخ، وإلا لصح أن تعتبر الأساطير الشعرية "والأمثال" حجة تاريخية، ولم يقل بذلك مفكر لأن كل الشعر اليونانى القديم خرافى، وكل ما فيه من الآلهة والحروب خرافى أيضًا، وربما لم يحصل شىء مطلقًا من هذه الحروب، بل من المحقق أن أشيل وأغمنون وإلهة الشعر التى نزلت من السماء، أشخاص خياليون، والقصة نفسها خيالية. بل قالوا إن هو موروس نفسه شخص خرافى لا أثر له فى الحقيقة. فكيف تكون هذه الأشعار ومثلها دليلا على حالة الاجتماع وعلى حياة الأمم دلالة تاريخية؟ وهل يصح أن نصدق بوجود الأشخاص الذين وجدوا فى أشعار الجن عند أدباء العرب؟ وأن تكون قصة "ألف ليلة وليلة" صحيفة صادقة من صحف التاريخ الإسلامى؟ أو صورة صحيحة من صور الحياة الاجتماعية فى بغداد ومصر وغيرهما؟ لا نزعم أن كل ما بها ضرب من الكذب أو الافتراء، ولكن الإنسان يرى من أول وهلة أن بها مبالغات هى أثر الكتابة الخرافية، والأساطير الأدبية وأثر الصنعة، فيها أشخاص معروفون، فيها ملوك وأمراء، فيها نساء وحكام، ولكن أوصافهم أو أشخاصهم غير حقيقية. وربما كان هذا الكذب الصاعى هو الذى يحمل القارئ أحيانًا على استمرائها. والاسترسال فى قراءتها. لأن الأشياء التى هى غير مألوفة، كثيرًا ما تعجب الإنسان، وترضى النفس التى تحب الخداع، وتميل إلى الانتقال وتحب التغيير، خصوصًا عندما يكون فيها من الأفكار والخيالات ما يحرك عواطف الشاب، ويعجب الشيوخ والكهول. وكثيرًا ما يكون تشويه الحقيقة فى الفنون داعيًا من دواعى الإعجاب. لماذا يعجبنا أن نرى صورة مشوهة، ذات رأس ضخم على جسم صغير لا يمكنه أن يتحمل هذا الرأس؟ أليس ذلك لأنه غريب عنا، بعيد عما نراه من الحقائق، محرك فينا حب

الاستطلاع؟ كذلك الحال فى جميع الفنون. غير أن هناك نوعًا من الفنون التى تدخل فى باب الحقائق، وتجعلها سائغة على النفس خفيفة الروح، سهلة القبول. فإن صورة يصورها المصور لإنسان، لا يمكن أن تكون غيره، ولكن ربما اقتضت الصناعة أن يضع على رأسه العمار بشكل خاص، أو أن يغير من شكل ملابسه أو لونها بعض التغيير، أو أن يجعل ارتفاع "طربوشه" مثلا ارتفاعًا مناسبًا لما يريد، أو أن تقضى الصناعة وضع ثلاثة أو أربعة أزرة فى ملابسه، وهو لم يحمل إلا اثنين مثلا. هذه التفصيلات لا تغير من حقيقة الشخص نفسه، غير أنه لا وجود لها. كذلك الحال فى الشعر والنثر. ففى أشعار العرب ما يدل فى مجموعه على أخلاقهم، كالكرم والشجاعة وعدم احتمال الضيم، إلى غير ذلك مما ورد فى شعرهم. ولكن لا يمكن أن ندرس إنسانًا دراسة تامة فى شعره. نعم قد يستدل من كتابات الرجل على شىء من أخلاقه. ويمكننا أن نعرف إن كان الشاعر عاقلا أو مجنونًا، كما يمكننا أن نعرف إن كان مخطئًا أو مصيبًا فى أفكاره. ولكن هل يصح أن نحكم على إنسان بالشجاعة لأنه مدح الشجاعة؟ أو نقول إنه كريم لأنه مدم الكرم؟ لدينا الآن من يصف السيف والرمح، ويمدح الشجاعة والموت فى سبيلها، وهو لا يعرف أن يقبض على السيف، وتهتز فرائصه خوفًا إذا هم إنسان بضربه بيده لا بسيفه. وكم من شاعر وصف الخمر وهو لم يشربها، ومدح التقوى وهو لم يعرفها.

وقد يكون للكاتب أو الشاعر رأى خاص، يريد أن ينشره أو يعمل على تأييده، ورأيه غير معروف فى البيئة التى يعيش فيها، أو معروف عند القلة. فإن قصص بول بورجيه "l.aul Bourget" القصاص الفرنسى بها نزعة دينية

كتوليكية لأنها تدعو إلى الكنيسة الكثوليكية وإلى مذاهبها. وتعمل على تأييد ذلك. وأنطول فرانس "Ana ole France" المعاصر له رجل فيـسلسوف ملحد. قصصه مملوءة بالهزئ والسخرية ما العالم ومن الأفكار الدينية، وكلا الكاتبين يكتب وينشر أفـكاره الخاصة، فى نفس البـيئة التى ينشـر فيهـا الآخر أفكارًا تخالفـها. فأيهـما يصح أن يكون قلمه وأفكاره دليـلا على البيئـة التى يعيش فيها؟ هذا يدل على نزعات فردية، وعلى مـجتمعات وأفكار خاصة، لا على الأمة أو حـالة الاجتماع العـام. اللهم إلا فى الكتابة العلميـة، أو فى مذهب الحقائق "Realisnme" الذى من غرضه إظهـار الشىء كما هو. على أن ذلك لا يخلو من بعض المبـالغـة أحـيانًا، ومن الـصناعة التـى تضطر الكاتب إلى الخروج عن الحقائق.

وعلى كل حال فـلا يصح أن تعتبر البـلاغة دليلا صحيـحًا على الزمن والأشخاص الذين ظهرت بين ظهرانيهم، أو أن تكون أثرًا تاريخيًا.

نعم لا تكون الكتابة من الأدلة التاريخية لأمة من الأمم. لأن الكاتب لا يقصد من وضع قصـة تمثيلية لحادثة تاريخية تمثيـلا خاليًا من الزيادة والنقص، ولكنه يريد إظهار رأيه وإثبـاته فى قصته وهذا مـا يدور عليه محور التـمثيل. ولذلك يعـمل على إظهاره بأى شكل كـان، وبأى وسيلة كـانت. هذه الزينة التى توجـد على المسـارح من ستـائر وأثاثات وألوان وأضـواء، هذه الملابس والحركات والأشكال، قد تكون غيرها فى الزمن الذى وجدت فيه القصة وربما لا تشبـههـا، كالكلام الكثـير والمناظر المختـلفة التى لا تكون من القـصة فى شىء، ولكن المؤلف يريد أن يعـجب الحـاضرين، وينال من نفـوسهم بهـذه المظاهر ليتوصل إلى إثبات فكرته، أو إلى نشر حقيقة بهذه الوسائل. كل ذلك

لازم تقتضيه قواعد الفن وتستلزمه الرغبة فى الإعجاب. ولذلك كثيراً ما يغير أصحاب الفنون مناظر القصة التمثيلية إلى غيرها، لأنهم يرون ذلك أوفق وأدعى للجمال، ولأن الفنون ليس من غرضها البحث عن الحقائق. ذلك يرجع إلى الفلسفة والعلوم. إنما غرض الفنون إظهار الجمال.

هذا مثل ضربناه لأن الصناعة فيه أظهر، وعدم اتباع الحقيقة فيه أبين، والجرى وراء أهواء الكاتب فى إظهار البراعة فيه أوضح، لأنه مبنى على المشاهدات. ومثل ذلك يقال فى أنواع النثر والشعر. وهل مثل قول ابن كلثوم:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

يدل على حقيقة؟ وهل هذه كانت حالة الاجتماع فى ذلك الزمن؟ هذا من باب الفخر والحماية وجمال القول والمبالغة، أو من التهاون بالحقائق لاقتضاء الصناعة ذلك. كل ما يمكن أن تدل عليه البلاغة من نظم ونثر، وقصص وحكايات وروايات تمثيلية واجتماعية، هو مجموع الحركة الفكرية للأمم، والصورة العامة للميول والأهواء للمجتمع، وشىء من حركة النفوس والعقول، وبعض الأخلاق والعادات التى يمكن أن تأخذ من بطون هذه الصحف.

وقد قال بعض النقاد إن الحالة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكثر مما تعرف من البلاغة نفسها. أى أنه يمكن أن يعرف الإنسان من ملاحظات النقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخلاق والعادات من عدمها. لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه، فتكون آراؤهم أقرب إلى الصواب من آراء الكاتب. وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمه على

المجتمع الذى يعيش فيه. نضرب لذلك مثلا بحالة القصص الاجتماعية الآن: كثير من هذه القصص يمثل طبقات الناس تمثيلا غير حقيقى. يمثل المرأة أو الفتاة فى حالة من الأخلاق لا يرضاها لها إنسان، خصوصًا فى موقف الحب والغرام، كما هى الحال فى القصص التمثيلية. فلو لم تظهر آراء النقاد ما فى هذه الكتابات والأفكار من المبالغات، واعتمد كل إنسان على ما يقرأه فى أخذ الحقائق منها، لامتلأت نفسه خطأ من الحكم على المجتمع. وكما هى الحال للأجانب الذين يصفون البلاد من بطون الكتب لا غير، كالقصص والروايات، ويحكمون عليها بناء على ذلك. لهذا قيل إن الحكم على البلاغة نفسها هو صورة الاجتماع، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئًا من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ويوازن بينها، ليستخلص منها صورة صحيحة من الحالة الاجتماعية. فقد يجد أفكارًا متناقضة مختلفة فى عصر واحد، لأن كل إنسان له رأى، فإن لم يكن هناك تمييز بين هذه الأفكار فبأيها يحكم القارئ؟ وعلى أى اجتماع يكون حكمه صحيحًا؟ وماذا تكون الحال إذا حكمنا على زمن الرشيد بشعر أبى نواس وأمثاله، وحكمنا على الشعراء بمثل هذه الأخلاق؟ وأبو نواس يكاد يكون وحيدًا فى بابه مع أصحابه. كما قال حمزة بن الحسن الأصبهانى جامع ديوان أبو نواس:

"وقد خص شعر أبى نواس ممن لهج بإضافة المنحول إليه بما ليس فى غيره من الأشعار، وذلك أن تعاطيه لقول الشعر كان على غير طريقهم، لأن جل أشعاره فى اللهو والغزل والمجون والعبث، كأشعاره فى وصف الخمر ولغة النساء والغلمان. وأقل أشعار مدائحه، وليس هذا طريق الشعراء الذين

كـانوا فى زمانه، وكـانوا من بعـده، فأبو نواس فـى توفره على الهـزل بإزاء عمران بن حطان وصالح بن عبد القدوس فى توفرهما على الجد الصرف".

هذا معنى أن آراء النقاد هى صـورة الاجتماع أكثر من البلاغـة نفسها. وجملة القول أن كل ما يصح أن يؤخذ من البـلاغة هو الحالة العامة للأفكار، وطريق سيـرها فى زمن من الأزمان، حـتى فى البلاغـة الحقيـقية الـتى تنشر الحـقائق بدون زيـادة ولا نقص. لأنه ليس الغـرض منا تقريـر الحقـائق، بل عرض صـورة الشيء عرضًا إجـماليًا، وبث الـعبرة والعظة. كـما إذا وصف الكاتب رجـلا قذرًا، رث الثبـات حافى الأقـدام، فإنه لا يصفـه لذاته، وإنما يصفه لإظـهار النفس الكامنة فيه. وكـما نجد فى الكتابات الحـديثة الآن أثناء الكلام على شـخص من الأشخاص، وصـف حجرته، ومـا لديه من الأثاث وغيـرها. كل هذا للتوصل للحـكم على الرجل وعلى نفسـه. فإذا أردت أن تثبت عن أمـة من الأمم فإنك لا تجدهـا فى بلاغتهـا. وإنما تجد فى بلاغتـها أذواقها وأنواع ميولها.

***